

مقدمة

ما يلاحظ أن الاحتلال الإسباني لبلاد المغرب العربي الكبير لم تواجهه صعوبات أو مقاومات عسكرية تذكر وهذا راجع إلى عدم قدرة الكيانات السياسية القائمة في المنطقة الضعيفة جدا وقد أنهكتها الصراع الداخلي فيما بينها وأيضا حركات التمرد والانشقاق التي كانت تعلنها بعض القبائل هنا وهناك، إضافة إلى أن الإسبان استعملوا أسلحة متطورة كالمدافع والبنادق عكس الفرق العسكرية للمسلمين الذين جابهتهم بالسيوف والرمح والبنادق القديمة مما أحدث الهزيمة بينهم.

ظروف إلحاق المغرب الأوسط

إنالانتصارات المتتالية للإخوة بربروس وصلت أخبارها إلى سكان الجزائر الذين سارعوا لطلب الاستنجاد بهم من أجل وقف الهجمات الإسبانية على مدينتهم، لبي الإخوة بربروس طلب الجزائريين دون تردد ففكروا بعد ذلك الرحيل من تونس حيث عملوا على تحرير المدن الشرقية للجزائر.

01- الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط: خوفا من عودة الأندلسيين مرة أخرى قررت إسبانيا احتلال المدن الساحلية الإسلامية الواقعة في المنطقة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط بالنسبة إليهم عامة والمغرب الأوسط خاصة، ففي ظرف خمس سنوات من 1505م إلى 1510م بالنسبة للمغرب الأوسط احتلوا المرسى الكبير، وهران، أرزيو، مستغانم، شرشال، الجزائر، وبهذا فقد حققت إسبانيا على هذه العدو حمايتها للاجئين الأندلسيين، ومساعدتها لثورات الموريسكيين في الأندلس.

أ- احتلال مدينة وهران والمرسى الكبير 1509م: عملت المملكة الإسبانية جاهدة على اختراق خط الدفاع الساحلي لبلاد المغرب بعد أن تمكنت من القضاء على مملكة غرناطة سنة 1492م فكانت خطتها قائمة على غزو سواحل شمال إفريقيا، من أجل تصفية النفوذ الإسلامي نهائيا من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد أسفر هذا الانتصار الذي حققه الملكان المسيحيان ضد المسلمين على انتعاش الروح

الصليبية من جديد وتعقب الأندلسيين الذين التجأوا إلى موانئ شمال إفريقيا بدأت إسبانيا بإنزال حملاتها على سواحل المغرب.¹

يذكر المؤرخ محمد بن يوسف الزياتي في كتابه "دليل الحيران" عن احتلال مدينة وهران من طرف الإسبان أنه جاء بعد إكمال فردناندو احتلال الأندلس فيقول: "ثم غزا فردينة المار بجيشه وهران في أوائل ربيع الثاني سنة 911هـ فملك برج المرسى، واستقروا به إلى سنة 914هـ دخلوا وهران وذلك في آخر شهر محرم، ويعود دخول الإسبان إلى وهران طمعا في خيراتها، لما رأوا فيها من تطور مس جميع جوانبها، وخاصة منها الجانب الاقتصادي والعمراني المتأثر بالحضارة الأندلسية، ذلك أنها شهدت في ظل السيطرة الزيانية والمرينية والحفصية ومهاجري الأندلس نشاطا تجاريا وصناعيا واسعين، وزادت منازلها في هذه الفترة على ستة آلاف منزلا، وتعددت مساجدها وفنادقها ومدارسها وحماماتها ومبانيها العامة.

ب- احتلال بجاية 1510م: لم تكن بجاية بعيدة عن أحداث بلاد المغرب الأوسط، بل كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن حماية ثغوره، وكان تدخلها المستميت من طرف سكانها وحكامها في الشأن الداخلي للمنطقة، وتدخلها في الشأن الخارجي بتكثيف الجهود لنصرة الأندلسيين سببا في توجه الإسبان لاحتلالها، فكانت ترى أن عليها مسؤولية الدفاع عن الأندلس، وحماية أهلها فكانت سفنهم الحربية تقوم بعمليات انتقامية لإخوانهم الأندلسيين، الذين التحق بعضهم بالمدينة هروبا من الضغوط التي كانوا يتعرضون لها في إسبانيا، وقد أصبح بعضهم يشارك في تلك العمليات، وكانت تلك المساعدات ذات أثر على احتلال المدينة، إذ كان الإسبان ينظرون إليها على أنها شوكة من شأنها أن تهدد مستقبل وجودهم بالمنطقة، فكانت بجاية الهدف الثاني بعد احتلال وهران بسنوات قليلة نظرا لأهمية المنطقة، ودورها السياسي والعسكري في بلاد المغرب الأوسط، وفي مساعدة الأندلسيين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة.²

ونظرا لأهمية المدينة فقد أعد لها الإسبان العدة لشن ضرباتهم ضدها إذ بذل الكاردينال "خيمينس" من المهمة والجهد في تجهيز الحملة نفس ما بذله في تجهيز حملتي وهران والمرسى الكبير،

¹ - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص123.

² - عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط01، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1979، ص24.

وأسند القيادة إلى بطرس النفاري "بدرو نافارو"، فأخذ يستعد تحت طي الكتمان حتى لا تتسرب أنباء المسيرة إلى بجاية، وامتطى صهوة أسطوله بالمرسى الكبير يوم 30 نوفمبر 1509م مدعيا العودة إلى إسبانيا، واتخذ طريقه فعلا صوب الشمال، وأرسى على جزائر الباليار الإسبانية ففضى بها شهر ديسمبر القاسي ذا الرياح المتقلبة، وجاءه المدد من إسبانيا إلى هناك، فنظم الحملة، ورتب تفاصيلها، ووضع على الأسطول الأمير "خيرو نيمو فيانلي"³.

ج- احتلال عنابة: لما تمكن الإسبان من احتلال بجاية امتدت أيديهم نحو الشرق من بلاد المغرب الأوسط، فحاولت أن تقضي على مدينة ساحلية أخرى ألا وهي مدينة عنابة ذلك أن القيادة الإسبانية المحكمة التي كانت تنفذ برنامجا دقيقا من أجل احتلال البلاد الساحلية قد أصبحت تضيق الدائرة وتقطف المدن الساحلية، فاحتلت مدينة عنابة الجميلة المتحضرة بعد مقاومة لا تكاد تذكر، وسلك فيها جندها ما كان يسلكه باستمرار في المدن التي يحتلها، وكان ذلك سنة 1510م.⁴

د- احتلال تلمسان ومعسكر: لما كانت تلمسان من أهم المدن الساحلية التي استقطبت العديد من الأندلسيين الفارين بدينهم وعقيدتهم وفكرهم إلى سواحل المغرب الأوسط، لم تسلم من هذا الاحتلال، وبالتالي نالت نصيبا منه، فتلمسان مدينة العلم والعلماء في العصر الزياني، ومنطقة للتبادل الثقافي بين المشرق والمغرب، ورابط حضاري بين المغرب والأندلس، فهجرة العلماء والمفكرين الأندلسيين إليها لم تعرف الانقطاع، ونظرا لهذه الصلة الوثيقة بين العدوتين كان لزاما على الإسبان احتلالها لقطع هذا الحبل باعتبارها أهم منطقة جلبت الأندلسيين إليها من جهة، وللقضاء على قوتها البحرية والاقتصادية من جهة أخرى، فتضررت الحضارة الزيانية من جراء هذا الاحتلال أيما تأثير فبعد أن وصل إلى تلمسان آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل عبر وهران بدأت التهديدات الإسبانية

³- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1968، ص108، 109.

⁴- نجيب دكاني: الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر هجري 10هـ السادس عشر ميلادي 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001-2002، ص28.

تظهر في الأفق ضد تلمسان، واضطر الأمير الزياني محمد السابع أن يذهب بنفسه إلى إسبانيا ليطمئن فرديناند الخامس، ويقدم له الهدايا استرضاء له.⁵

ه- احتلال مدينة الجزائر: عرفت صراعا كباقي المدن الأخرى مما هيأها لأن تكون من أولويات المدن في التعرض للاحتلال الأجنبي الإسباني بعد زوال ملك غرناطة بها، وقد كان لسقوطها دورا بارزا في استمرار التوسع على حساب الأراضي المغربية ومنها الجزائر التي كان من بين أسباب احتلالها موقعها الجغرافي الهام، وغناها الاقتصادي العظيم الذي جعل إسبانيا تفكر في احتلالها تعويضا للخسائر التي لحقت بها في حربها مع المسلمين في الأندلس.

ومن الأسباب التي دفعت إسبانيا إلى هذا الغزو، الدور الهائل الذي لعبه ولاية المغرب الأوسط، وتفانيهم في نصرة إخوانهم الأندلسيين الفارين بدينهم وعقيدتهم إلى الجزائر، وكان الجهاد البحري في شمال إفريقيا قد لفت أنظار أوروبا المسيحية، ولاسيما مجاهدي الجزائر الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الأوروبية، وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط، حيث نقلوا معهم الكثير من الأسرى والغنائم، وتكفلوا بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محتتهم، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والعسكرية والسياسية الأوروبية، وعليه كان للقائدين البحريين عروج وخير الدين دور في هذا الجهاد، وكانت إسبانيا تنوي التخلص منهما، وسعت إلى ذلك بكل الطرق والمكائد والدسائس، وقد ساء أعمال هذين القائدين ملوك إسبانيا الذين اعتبروها قرصنة بحرية، في حين اعتبرها بعض الدارسين أنها نوع من الجهاد البحري.⁶

02- إحقاق الجزائر وارتباطها بالحكم العثماني 1515م: استطاع عروج وخير الدين أن يقدموا على تخليص الموانئ الجزائرية من الاحتلال الإسباني وأن ينقذوا الكثير من الثوار المسلمين بالأندلس من الأسر والقهر ويأتوا بهم إلى شمال إفريقيا، وبعد تلبية نداء الاستنجاد وتحرير بعض المدن الساحلية، وتمرد ابن التومي، قرر خير الدين مغادرة الجزائر والعودة إلى اسطنبول للحصول على المساعدة، لكن أعيان مدينة

⁵- يحيى بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص ص 11، 12.

⁶- حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي والمورسكي، دار الهدى، الجزائر، 2010، ص 20.

الجزائر ألحوا عليه بالبقاء، وعرض عليهم فكرة إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، تقبل أهل المدينة هذا الرأي وأرسل خير الدين رسالة إلى السلطان سليم الأول 1512-1520م باسم الأعيان والفقهاء والتجار والأمناء... تعرب عن رغبتهم في الدخول تحت طاعته ويتعهدون بالدعاء له على المنابر وضرب السكة باسمه مع وفد بقيادة الحاج حسين، وافق السلطان على طلب الأهالي وأرسل 2000 من الانكشارية وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية ودعمهم بـ 4000 متطوعاً وعين خير الدين بربروس أول حاكم على الجزائر بلقب بايلرباي.⁷

⁷ - أحمد سالم: المرجع السابق، ص 94، 95.

المحاضرة الثالثة: المد العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط.

مقدمة

في الشرق من المتوسط كانت هناك قوة إسلامية نافذة وهي الدولة العثمانية التي زاد نشاطها البحري وتصادمت مع القوى المسيحية خلال تقديمها الدعم لمسلمي الأندلس الفارين من جحيم القتل والتشريد والإكراه الذي تقوم به محاكم التفتيش، وفي هذه الظروف والمحن ظهر الإخوة "بربروس" الذين ذاع صيتهم بين المسلمين في غرب المتوسط ومساعدتهم للأندلسيين وخاصة لما استقروا في جزيرة جربة التونسية، ثم منحهم السلطان "محمد الحفصي" ميناء حلق الوادي مقابل خمس الغنائم والذي اتخذوا منه مركزا لغزو السفن والمدن المسيحية.

01- أصل الإخوة بربروس: مما يذكر عنهم أنهم من صحراء الأناضول، انتقل أبوهم إلى جزيرة مديلي أو مديلي ضمن الجيش العثماني واستقر فيها، وقد فتح هذه الجزيرة محمد الفاتح سنة 866 هـ/ 1462م،¹ وترك فيها حامية من جنوده منهم واحدا اسمه يعقوب، الذي تزوج بإحدى الذميات فأنجبت له أربعة أولاد وهم: إسحاق، عروج، خير الدين وإلياس.²

02- ظهور الإخوة بربروس: اشتغل الأخوان خير الدين وعروج أول أمرهما بالتجارة البحرية، وفي إحدى سفرات عروج إلى طرابلس الشام اعترضت سفينته سفن تابعة لجنود جزيرة رودس واستولت عليها، وأسرت عروج واستشهد أخاه إلياس³، فكان هذا الحادث تحولا في حياة عروج، وبعدهما تخلص من الأسر اتجه إلى القرصنة والانتقام من سفن رودس النصرانية، ثم أخذ أمره يقوى شيئا فشيئا حتى وصل جزيرة جربة⁴، وجاء خير الدين أيضا إلى جزيرة جربة حيث التقى بأخيه عروج، بعد أن قدم هدية إلى سلطانها أبي عبد الله، وواصل الإخوة نشاطهم البحري، واكتسبوا شهرة كبيرة في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ بفضل الشجاعة التي كانوا يتميزون بها، والتي أظهروها في نشاطهم ضد السواحل

¹ - محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص 671.

² - مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر، تح وتق وتع: عبد الله حمادي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص 48.

³ - مؤلف مجهول: مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 23.

⁴ - محمد دراج: المرجع السابق، ص 182، 183.

الإيطالية خاصة، فقد تمكنوا من الاستيلاء على ثلاث سفن محملة بالغنائم، بعد رحلة دامت عشرين يوماً، ثم عادوا بها إلى تونس، ووزعوا جزءاً هاماً منها على فقراء المدينة.⁵

03- استقرار عروج وخير الدين في تونس: بعد اتصال الأخوين عروج وخير الدين بالسلطان الحفصي أبو عبد الله سنة 1504 مباح لهما الإقامة في أي ميناء يريانه مناسباً لهما، واتفق معهما أن يكون له الخمس مما يستوليان عليه من غنائم النصرى، وكان السلطان الحفصي يتقرب منهما زيادة على ذلك أن يحدثا هيبة لدولته وحماية سواحله نظراً لما يتمتع به الأخوان من كفاءة حربية، فكانا يقيمان الشتاء في تونس ويخرجان بداية الربيع في جولتهما البحرية، كما كانت تدفع السلطان الحفصي رغبة استعادة متفتكه الإسبان من أراضيه في الجهة الغربية.⁶

إذا كانت موانئ السلطنة الحفصية هي التي تدعمت في أحواضها القوة البحرية للأخوين عروج وخير الدين، وقد شجعتهم انتصاراتهما البحرية على التقدم والتوغل في عرض البحار إلى السواحل الإسبانية، ولهذا استطاع عروج وخير الدين أن يقدموا على تخليص الموانئ الجزائرية من الاحتلال الإسباني وأن ينقذا الكثير من الثوار المسلمين بالأندلس من الأسر والقهر ويأتوا بهم إلى شمال إفريقيا.⁷

04- جهود الإخوة بربروس في تحرير المدن الساحلية:

أ- المحاولة الأولى لتحرير مدينة بجاية 1512م: لجأ الإخوة بربروس إلى سواحل بجاية بعد أن أجبرتهم الرياح على ذلك، لذلك تم إرسال السفن الإسبانية للقضاء عليهم، فرأى الإخوة أن الاشتباك مع الإسبان قرب السواحل فيه خطورة وقرروا الابتعاد عنها، فظن الإسبان أن العثمانيين يريدون الفرار فطاردهم وأدركوهم بعيداً عن الساحل، عندها أعطى الإخوة الأوامر بشن هجوم معاكس على السفن الإسبانية استولوا خلالها على ثلاث سفن ولاذت البقية بالفرار واحتتمت بميناء بجاية، فشرعت الحامية

⁵- مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تح و تق وتع: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص15.

⁶- أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، المطبعة الأساسية بن عروس، تونس، 1977، ج 02، ص10.

⁷- محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص675.

الإسبانية في قصف عروج ومن معه مما أدى إلى سقوط ستين شهيدا إضافة إلى عدد كبير من الجرحى، لما رأى خير الدين ذلك أصدر أوامره بالانسحاب إلى تونس.⁸

ب- تحرير جيجل: بدأ الإخوة بربروس من جيجل التي حرروها من الجنويين عام 1514م التي كانوا يحتلوها منذ سنة 1260م وجعلوا منها قاعدة لأسطولهم واستقروا فيها، وأصبحت أول قاعدة لهم، وكان ظهور الإخوة هناك بالاستيلاء على سفينة صقلية ممتلئة بالقمح.⁹

ج- المحاولة الثانية لتحرير بجاية 1514م: كان الاخوان عروج وخير الدين يدركان أن تحرير بجاية سوف يؤدي الى انهاء الاحتلال الإسباني للشرق الجزائري كله وقطع خطوط مواصلات القوات الإسبانية بين طرفيها الشرقي والغربي، ويؤمن السواحل الجزائرية الشرقية والتونسية من القراصنة ووصل وفد من أعيان وأشرف بجاية يحملون اليهما كتابا يطلبون فيه تخليصهم من ظلم الإسبان، وهكذا قام الاخوان بتجهيز اثني عشرة سفينة حربية على متنها الفين جنديا من البحارة يساندتهم عشرين ألف من رجال القبائل، وبدأ الهجوم على القلعة الخارجية التي استولوا عليها بعد أربعة أيام وقضوا على جميع أفراد الحامية الإسبانية وأسروا 500 منهم، بعد ذلك حاصروا القلعة الداخلية وقصفوها مدة عشرين يوما الى أن نفذ منهم البارود واستعانوا بسلطان تونس الذي خذهم وتجاهل طلبهم¹⁰، إضافة إلى وصول 100 قطعة بحرية الى سواحل بجاية على متنها حوالي 10000 جنديا إسبانيا لذا قرر عروج رفع الحصار وسحب قواته إلى جيجل.¹¹

د- المحاولة الأولى لتحرير قلعة البنيون: عندما بلغ أهالي مدينة الجزائر نبأ موت فرديناند سنة 1516م نقضوا المعاهدة المفروضة عليهم وامتنعوا عن دفع الجزية، وأرسلوا إلى عروج بجيجل يستدعونه لطردهم الإسبان رغم معارضة سالم التومي، الذي لم يتردد في قبول الدعوة حيث أعد 16 سفينة وأرسلها مع نصف جنوده بحرا وأما النصف المتبقي فقد توجه برا إلى مدينة الجزائر، وفي الطريق انضم اليه 5000

⁸ - محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث، ط01، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص24.

⁹ - جون. ب. وولف: المصدر السابق، ص30.

¹⁰ - محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص678.

¹¹ - أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ص11.

من رجال القبائل وحينما وصل إلى مدينة الجزائر توجه إلى قلعة شرشال التي تبعد عن المدينة بحوالي 150 كلم ففتحها وترك بها حامية ثم عاد إلى الجزائر فدخلها.¹²

ه- القضاء على تمرد الشيخ سالم التومي: كان سالم التومي قد عارض استدعاء الإخوة بربروس لتحرير مدينة الجزائر لكنه اضطر إلى القبول تحت ضغط الأعيان عليه ، لذا قاد أول حركة تمرد ضد الوجود العثماني لأن ذلك يفقده رئاسة مدينة الجزائر فسارع إلى استغلال الفشل في الاستلاء على حصن البنيون ومعاملة الجنود الأتراك للجزائريين مما أثار موجة عارمة من التدمير والسخط، فشرع هو ومن والاه من الأعيان الساخطين في إثارة العامة على العثمانيين، عندها اتخذ عروج موقفا سريعا وأمر بإعدامه بعده بايعه أعيان المدينة وعلمائها سلطانا على الجزائر.¹³

و- الحملة الإسبانية الأولى لاستعادة مدينة الجزائر 1516م: أزعج الإسبان مبايعة عروج سلطانا على الجزائر فقرروا توجيه ضربة حاسمة تستأصل الخطر العثماني قبل أن يستفحل أمره، فسارع يحيى بن سالم التومي إلى الإسبان بوهران طالبا منهم التدخل لطردهم الأتراك والانتقام لأبيه منهم، فلم يتأخروا وسارعوا في الاستعداد لغزو الجزائر بعد الاتفاق مع أمير تنس والتحالف مع قبيلة الثعالبة في سهل متيجة يساندهم الإسبان المتحصنون في قلعة البنيون، كما وجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه العون، فأرسلت 35 سفينة تحمل 15000 جنديا وعندما وصلت هذه القوات تصدى لها العثمانيون والأندلسيون تساندهم بعض القبائل وأهالي المدينة، فاضطر الإسبان إلى الانسحاب بعد أن خلفوا وراءهم آلاف القتلى.¹⁴

ز- رد الحملة الإسبانية الثانية على الجزائر: كانت في نفس السنة (1516)، خلفت 2700 أسيرا وعددا لا يحصى من القتلى.

ك- تحرير قلعة تنس 1518م: عندما وصل خير الدين إلى سواحل تنس لجأ الإسبان إلى القلعة متحصنين بها فاستولى على المدينة وضرب حصانا على القلعة.

¹² - محمد دراج: المرجع السابق، ص261.

¹³ - كورين شوفاليه: المصدر السابق، ص30.

¹⁴ - نجيب دكاني: المرجع السابق، ص54.

ل- تحرير تلمسان: لم يستقر المقام بالأخوين في تنس حتى جاءهما وفد من مدينة تلمسان يطلب من عروج المساعدة للقضاء على السلطان أبي حمو الثالث الذي استولى على عرش ابن أخيه أبي زيان الذي تحالف مع الإسبان وأثقل عليهم بالضرائب، فلبى النداء وسلك الطريق الواقعة شرق وهران، وعندما وصل إلى قلعة بني راشد وضع عليها حامية تضم 600 مقاتلا تحت قيادة أخيه إسحاق واعتضت طريقه قوات أبي حمو موسى الثالث التي انهزمت أمامه وفر إلى فاس ومنها إلى الحامية الإسبانية بوهران عندها دخل تلمسان ونصب أبي زيان أميراً عليها والذي أعلن تمرده مما أجبره على قتله وأعلن نفسه حاكماً على تلمسان.

جمع أبو حمو أشتات قواته ودعمته الحامية الإسبانية بوهران بقوة عسكرية بلغ عددها عشرة آلاف (10000) جندياً وساروا نحو قلعة بني راشد وتمكنوا منها وقتلوا الحامية التركية بها، وحاصروا تلمسان مدة ستة أشهر سقطت خلالها في يد الإسبان، فر عروج ولاحقه الإسبان ودارت معركة بينهم بالوادي المالح بنواحي عين تموشنت استشهد خلالها عروج في شهر ماي 1518م.¹⁵

المحاضرة الرابعة: تطور نظام الحكم في إيالة الجزائر خلال الفترة العثمانية (1518-1830م).

مقدمة

استمر الحكم العثماني في الجزائر من عام 1518م إلى غاية تاريخ الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر عام 1830م، حيث مر بمرحلتين متميزتين، ضمت الأولى ثلاثة عهود أو فترات مختلفة، أما الثانية فشملت عهدا واحدا هو عهد الدايات، وكل مرحلة تميزت بأسلوب معين في تسيير شؤون البلاد، حيث كانت الجزائر جغرافيا بعيدة عن مركز السلطة العثمانية العاصمة إسطنبول أو الباب العالي أو الأستانة، وبالتالي كانت تسيير من طرف بعض العناصر في مدينة الجزائر، وعموما نجد فئتين أو طبقتين سيطرتا على الجزائر طيلة الحكم التركي بها، ففي المرحلة الأولى منه كانت الطبقة الحاكمة بالجزائر هي فئة "رياس البحر"، أما الفئة الثانية التي سيطرت على الجزائر لمدة طويلة فهي فرقة "اليولداش" المتكونة من الجيش البري (الانكشاريين)، والحقائق التاريخية تؤكد أن هؤلاء الأخيرين كانوا يخلعون الحاكم الذي لا يرضيهم ويضعون بدله الشخص الذي يروق لهم، علما أن نفوذهم في الجزائر لم ينته إلا في سنة 1817م عندما قام الداوي "علي خوجة" بحملة ضدهم.

مراحل نظام الحكم العثماني في الجزائر: مر بمرحلتين رئيسيتين شملت الأولى ثلاثة عهود وسميت بالارتباط اللامركزي بالدولة العثمانية، أما الثانية فشملت عهدا واحدا وتميزت بالاستقلال الكلي عن الدولة العثمانية.

01- عهد البايبربايات (1518-1587م): يمثل هذا العصر أزهى عصور الحكم التركي في الجزائر، حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية، وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر، وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري.¹

أ- أهم الأحداث التي شهدتها فترة البايبربايات:

¹ - صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر، ص51.

أ-01- **على الصعيد الداخلي:** امتازت هذه مرحلة على المستوى السياسي الداخلي بالقوة وتوطيد ركائز الحكم، وتوحيد رقعة البلاد، حيث استطاع البايبربايات أن يحققوا الوحدة الإقليمية والسياسية للجزائر، التي امتد نفوذها وسيطرتها إلى كل الجهات شرقا وغربا وجنوبا، والقضاء على كل الإمارات المحلية: إمارة تلمسان، الإمارات الحفصية في قلعة بني عباس، قسنطينة وعنابة، وإمارة جبل كوكو بالقبائل، ويعد "صالح راييس" البطل في تحقيق هذه الوحدة، لاجتهاده في مد نفوذ الأتراك إلى واحات الجنوب وقضى على الدولة الزيانية بتلمسان، وقام بفرض طاعة سلطة الجزائر على كل المناطق.²

أ-02- **التنظيم الإداري:** وفيما يخص تنظيم البلاد إداريا فقد كان لجهود صالح راييس أثر في ذلك بعد أن امتد نفوذ السلطة التركية إلى معظم المناطق الشرقية والغربية والجنوبية للجزائر، واكتمل الهيكل الإداري في الجزائر في حدود عام 1565م، إذ قسمها إلى أربع بايلكات (عمالات):

- بايلك الجزائر ومركزها مدينة الجزائر (دار السلطان).
- بايلك الشرق ومركزها مدينة قسنطينة.
- بايلك التيطري ومركزها مدينة المدية.
- بايلك الغرب ومركزها مدينة مازونة ثم معسكر وانتقلت إلى وهران بعد تحريرها من الإسبان في المرة الأولى عام 1708م ثم في التحرير النهائي عام 1792م.³



خريطة توضح حدود بيالك إيالة الجزائر

²- للاستزادة ينظر صالح عباد: المرجع السابق، ص ص 61-96.

³- محمد الصالح بن العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتح: يحيى بوعزيز، (ط.خ)، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 30.

تجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم الإداري وتنظيمه كان على مراحل متتالية، ليأخذ شكله النهائي في عهد حسن بن خير الدين في ولايته الثانية مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر، ولم يطرأ عليه تغير كبير طوال فترة الحكم العثماني.

أ-03- المميزات: اقتصاديا امتازت الإيالة الجزائرية بغناها الاقتصادي الكبير مصدره الثروات الزراعية والحيوانية، وما يأتيها من أموال الزكاة على الماشية والحبوب والزيتون وأنواع المدخولات الأخرى من رسوم وضريبة الصادرات وخمس غنائم البحر التي كان يغنمها الرياس وأموال الجزية التي كانت مفروضة على الدول الأوروبية، وعلى المستوى الصناعي فقد عرفت الصناعة تطورا كبيرا مثل: صناعة النسيج، البرانس، الزرابي، والحيالك، الأواني النحاسية، الجلود، الفخار، الصابون، وتركزت هذه الورشات الصناعية في مدينة الجزائر بصفتها عاصمة البلاد، كما كانت تصدر كميات وفيرة من الحبوب والبضائع: الصوف، الجلود، الشمع والنسيج إلى الخارج.⁴

ب- على الصعيد الخارجي: كان ولاية هذا العهد كلهم أقوىاء أثبتوا جدارتهم سواء في الداخل أو الخارج، وبفضل مركزهم ومكانتهم مدوا سيطرتهم على تونس وطرابلس الغرب، وتحكموا في تسييرها والوصاية عليها، فبحكم لقبهم البايبراي يعينون باشاوات تونس وطرابلس، وذلك نيابة على الدولة العثمانية، وكذا تعيين من يخلفهم بالجزائر عندما ينتقل أحدهم.

أما على مستوى العلاقات السياسية الخارجية فقد استطاعت الجزائر بفضل امتلاكها لأسطول قوي، أن تفرض إرادتها على الدول الأوروبية وإرغامها على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لمراكبها في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث استفحل في تلك الفترة نشاط القرصنة في البحر المتوسط.⁵ ومن جهة أخرى تنافست الدول الأوروبية على إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع الجزائر، لكن هذا التفوق العسكري جعلها مستهدفة من طرف الدول الأوروبية التي عملت من أجل تكسير شوكتها

⁴- محمد دلباز: الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في الجزائر أواخر العهد العثماني على ضوء دفتر التشريعات - ترجمة وتعليق-، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: حنيفي هلابلي، جامعة الجليلي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014-2015، ص ص151-156.

⁵- وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تع: عبد القادر زبادية، دار القصة، الجزائر، 2006، ص162.

وتقليل دورها ومكانتها الدولية، وعلى صعيد آخر اشتدت في هذه الفترة الحملات الإسبانية على الموانئ الجزائرية، حيث شنت إسبانيا حملة ضخمة على مدينة الجزائر في أوت 1519م، وحملة شارلكان (Charles Quint) الشهيرة سنة 1541م، والتي باءت كلها بالفشل.⁶

كما شهدت فترة البايلربايات بداية تسرب النفوذ الفرنسي إلى الجزائر، نتيجة للعلاقات الطيبة التي كانت تربط بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، وبسبب عداة الجزائريين والعثمانيين للإسبان، إضافة إلى تنافس فرنسا التقليدي حول وراثة مشاكل القارة الإفريقية، وتعود العلاقات الطيبة بين الدولتين إلى أيام السلطان "سليمان القانوني" و"فرانسوا الأول"، حيث حصلت فرنسا على امتيازات واسعة في أملاك الخلافة العثمانية عام 1535م.

ومن أهم هذه الامتيازات نذكر صيد المرجان بالسواحل الشرقية الجزائرية (القالا، عنابة والقل)، وقاموا بإنشاء حصن القالا الفرنسي سنة 1561م، وتدعم ذلك الامتياز بعد توقيع معاهدة السلم والتجارة بين الطرفين في عام 1628م، مع العلم أن هذه الامتيازات تسببت في إحداث أضرار جسيمة للتجارة الجزائرية التي أصبحت موجهة لخدمة الأسواق الأوروبية، كما شارك الأسطول الجزائري الناشئ في الحرب الفرنسية ضد إسبانيا.⁷

ويمكن تلخيص أبرز خصائصه وإنجازاته فيما يلي:

- التوحيد السياسي للجزائر ورسم حدودها تقريبا.
- يأتي قرار تعيين الحاكم في الجزائر من طرف السلطان العثماني بالفرمان.
- كانت السلطة في يد رياس البحر أو جنود البحرية.
- تحرير برج فنار عام 1529م من الإسبان، وتحرير بجاية من الاحتلال الإسباني عام 1555م، وضم طرابلس إلى الدولة العثمانية، وإنهاء الوجود الإسباني والحفصي في تونس عام 1574م.⁸

⁶- مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ط02، دار الأمة، قسنطينة، الجزائر، 2007، ص79.

⁷- عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619-1694 م)، رسالة ماجستير، إشراف: مولاي بالحيمسي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1984-1985، ص36.

⁸- صالح عباد: المرجع السابق، ص78.

- ازدهرت الجزائر في هذه الفترة التي تميزت الحياة السياسية فيها بالاستقرار وتحالف الجميع ضد العدو الإسباني، بعد القضاء على التمردات والثورات الداخلية.⁹

- بناء الأسطول الجزائري.

02- مرحلة الباشوات (1587-1659م): بدأت الدولة العثمانية تشتم رائحة التمرد، ومحاوله

الانفصال عنها والاستقلال ببلاد المغرب، فتقرر تقصير مدة حكم الوالي إلى ثلاث سنوات فقط والتنقيص من امتيازاته السابقة واختصاصاته وتغيير لقبه إلى باشا.

يذكر بعض المؤرخين أن الانكشارية هي التي ظلت تثير تخوفات وشكوك الباب العالي في نية البايكبايات طوال فترة حكمهم، الأمر الذي جعل من رجال الدولة العثمانية يرون أن السلطة في الولايات الثلاث: الجزائر، تونس، طرابلس تحت حكم رجل واحد قد يشكل خطرا على الإمبراطورية العثمانية، وبالتالي لابد من تقسيم الحكم وفصل الولايات عن بعضها البعض، وإسناد كل إدارة إلى باشا يحكم لمدة ثلاث سنوات، وذلك لإحكام السيطرة على البلاد ومنع حدوث أي تمرد ضدها.

وبهذا تكون الدولة العثمانية قد فكرت في تأمين وحدة الإمبراطورية، مانعة أن تكون إدارة شمال إفريقيا كله بيد شخص واحد ولمدة طويلة، وعلى صعيد آخر فإن هذا التغيير (تغيير النظام السابق البايكبايات إلى الباشوات) يعود إلى الصراع القائم بين طبقة الرياس وجنود الانكشارية، وذلك منذ نشأة الدولة الجزائرية التي قامت وتأسست على أكتاف رجال طائفة الرياس مثل خير الدين ومن خلفه، وعليه أراد السلطان العثماني أن يخفف حدة النزاع بين الفئتين وخاصة أن فئة اليولداش (الانكشارية) كانت مستاءة من تمتع فئة جنود البحرية بلقب البايكبايات أو أمير الأمراء، ولذلك قرر السلطان العثماني "مراد الثاني"، إلغاء هذه الرتبة وتعويضها برتبة أخرى هي رتبة الباشا.¹⁰

ومن بين أبرز الأحداث التي شهدتها عهد الباشوات على الصعيد الداخلي والخارجي نذكر:

⁹- مبارك بن محمد الهلالي الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص ص123، 124.

¹⁰- محمد خير فارس: المرجع السابق، ص58.

أ- **على الصعيد الخارجي:** عمل باشاوات الجزائر على وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين بسبب تأييد فرنسا لإسبانيا في عدوانها على الجزائر، حيث قام الباشا خضر بتحطيم المركز الفرنسي بالقالة وأسر رواده، وبالمقابل أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية وكان رد الجزائر بالمثل، حيث أسر القنصل الفرنسي بالجزائر، وعلى إثر ذلك تعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر من جهة ومع الخلافة العثمانية من جهة أخرى، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض وإبرام معاهدة بتاريخ 1628/09/19م نصت على ما يلي:

-إطلاق سراح الأسرى من الجانبين.

-التوقف عن الأسر من الجانبين.

-مسألة البواخر الفرنسية في البحر.

-تعيين قنصل فرنسي بالجزائر يتمتع بحصانة دبلوماسية.

-إعادة بناء المركز الفرنسي التجاري بالقالة.¹¹

كثرت الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية، وخاصة في عهد الباشا الأول "أحمد باشا" (دالي أحمد) الذي قاد بنفسه حملات عام 1588م هاجم شواطئ نابولي وصقلية وكورسيكا وإسبانيا، كما شنت الدول الأوروبية حملة على مدينة الجزائر في أوت 1611م بقيادة الإسباني "دي سانتا كروز" ومباركة البابا متكونة من سبعين سفينة حربية وعشرة آلاف جنديا من إنجليز وهولنديين وإسبانيين.¹² يضاف إلى ذلك سوء العلاقة السياسية بين الجزائر وتونس بسبب تدخل البايات التونسيين في شؤون شرق الجزائر، حيث كانوا يشجعون على قيام الاضطرابات، وتمت المصالحة بين البلدين بإبرام معاهدة صلح عام 1628م، كذلك فرنسا لم تحافظ على نصوص معاهدة 1628م وقامت بالاعتداء المتكرر على السفن الجزائرية وشواطئها وقتلت الكثير من الجزائريين، ففي ربيع 1035هـ/1629م

¹¹ - جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص ص66، 67.

¹² - صالح عباد: المرجع السابق، ص 114.

اعترضت سفينة بروفانسية سفينة جزائرية واستولت على حمولتها وأسرت من فيها، وكان رد الجزائر بالمثل بتتبع مراكب فرنسا وأسر ما فيها.¹³

ب- على الصعيد الداخلي: عرفت الجزائر العديد من التمردات والثورات امتد لهيبتها إلى الأعماق الصحراوية وإلى منطقة القبائل الكبرى نتيجة إرهابهم بالضرائب، كثورات القبائل (1643م) التي اندلعت بسبب زيادة الضرائب على المناطق القبلية، وذلك ليتمكن الباشاوات من جمع المزيد من المال وبسرعة، وفي اعتقادهم أن القبائل لا تتور، بالإضافة إلى الثورة العارمة التي تزعمها رياس البحر من جهة والجنود الانكشاريون من جهة ثانية، حيث ثارت الفئة الأولى بسبب قيام الباشا إبراهيم بحرمانهم من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائرهم في منطقة البحر الأدرياتيكي، وقيامه بدفعها كرشاوي لرجال الدولة في القسطنطينية حتى يبقوه في منصبه، ومن أجل ذلك هاجم رياس البحر قصره واعتقلوه وأودعوه السجن، ثم بعد ذلك تم ترحيله إلى "إزمير"، أما فئة الانكشارية فقد ثارت على نظام الباشاوات بسبب تطلعها المستمر إلى السيطرة والحكم بشتى الوسائل.¹⁴

وبالتدرج انتقلت إدارة الولاية إلى الانكشاريين وكسب ديوانهم قوة ونفوذًا، وصار الباشاوات موظفين فقط برئاسة الاحتفالات الرسمية وبعقد المعاهدات، وانتهى الأمر بسيطرة فرقة الانكشارية على السلطة سنة 1659م، واختفاء نظام الباشاوات، وظهور نظام جديد عرف بعهد الآغوات، وقد تقرر إعطاء السلطة التنفيذية للآغا رئيس الفرقة العسكرية، أما السلطة التشريعية فقد تقرر أن تكون بيد الديوان وبالتالي أصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم.¹⁵

ج- مميزات هذه المرحلة: يقوم السلطان العثماني بتعيين باشا كل ثلاث سنوات يقوم بإرساله من الدولة العثمانية ويستدعيه بعد انتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك، وبالتالي أصبح كل باشا يشعر أنه ليس في حاجة إلى ولاء الشعب مادامت مدة ولايته محدودة، فأصبح همه الوحيد

¹³ - عائشة غطاس: المرجع السابق، ص 51-53.

¹⁴ - صالح عباد: المرجع السابق، ص 119.

¹⁵ - عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص 59.

هو جمع أكبر قدر ممكن من الأموال طوال فترة حكمه، ومادام الحصول على الثروة هو الهدف الأساسي للباشاوات فقد أصبحت قضية الحكم مسألة ثانوية لا تهمهم.

إن انصراف الباشاوات إلى جمع الثروة قبل عودتهم إلى القسطنطينية، دفع باليولداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا عليهم ويضعفوا نظام الحكم في الجزائر، كما بدأت تظهر الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية وجنود البحرية العثمانية، وخاصة عندما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية، وظهر التصادم والتنافر بين جنود البحرية وجنود القوات البرية، وخاصة أن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوروبية، وهذا الصراع هو الذي تسبب في إضعاف الدولة الجزائرية، إن هذا الصراع راح ضحيته الأهالي نتيجة ظلم الانكشارية وانصراف طبقة الحكام إلى مصالحها الخاصة والتخلي تقريبا عن دورها في الاهتمام بالرعية ومصالحها.¹⁶

03- عهد الأغالبة (1659-1671م):

تعتبر هذه الفترة من أقصر فترات الحكم العثماني في الجزائر، حيث عرفت فيها البلاد اضطرابات سياسية كبيرة في نظام الحكم، من انقلابات، واغتيالات، وفساد، وتعرض الحكم التركي فيها لهزات عنيفة عجز فيها عن توفير الأمن والاستقرار الداخلي، كان الأغالبة ينتخبون من الفرقة الإنكشارية لمدة شهرين فقط، مما جعل معظم أفراد الإنكشارية يطمعون في الوصول إلى منصب الأغال، وقد تناوب على منصب الأغال أربعة آغال، وكلهم اغتيلوا من قبل الجنود بسبب محاولة احتفاظهم بمنصب الأغال أكثر من المدة القانونية المحددة لهم، أو لعجزهم عن دفع رواتب الجنود.¹⁷

¹⁶ - عبد الجليل رحوني: اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية (1530م-1830م)، مذكرة ماجستير، إشراف: عبد القادر صحراوي، جامعة جيلالي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2014-2015، ص71.

¹⁷ - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص68.

ويعصف معظم المؤرخين عصر الآغاوات بالدموي وذلك لكثرة عمليات الاغتيال التي يرجعون سببها أساسا إلى طبيعة تعيين الآغا، والمتمثلة في انتخاب آغا جديد من طرف الجند كل شهرين حسب الأقدمية من بين ضباط الانكشارية، وهو ما يشكل بحد ذاته خطرا على السلطة، انعكس بدوره سلبا على المجتمع، وبرغم قصر فترة نظام الآغاوات فقد تعاقب أربعة منهم على الحكم كلهم قضوا اغتيالا، حتى أن الجند لم يجدوا من يقبل بهذا المنصب الذي أصبح أقرب السبل للموت.¹⁸

أما فيما يخص أهم الأحداث التي شهدتها فترة حكم الآغاوات فنلخصها فيما يلي:

أ- على الصعيد الخارجي: برز الصراع بين فرنسا وإنجلترا حول السيطرة على إفريقيا الشمالية، وكثرت الغارات البحرية الفرنسية ضد الجزائر، ففي عام 1663 شنت فرنسا حملة عسكرية بقيادة الدوق "بوفور" (Duc Beaufort) للاستيلاء على مدينة الجزائر، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، فنظمت حملة أخرى انطلقت من ميناء "تولون" (Toulon) يوم 23 جويلية 1664م تحتوي على 83 سفينة و8000 عسكريا بقيادة "كولبير" (Colbert) والدوق "دوبوفور" ونزلت بجيجل، لكن سكانها والعثمانيين أجبروهم على الرحيل بعد معركة دموية خسرت فيها فرنسا العديد من بواخرها وجنودها، فكرر ملك فرنسا "لويس الرابع عشر" عام 1665م هجوما آخر فاشلا على كل من مدن شرشال والقل وجيجل، ولم يعد السلم بين الدولتين إلا بإبرام اتفاقية جديدة مع فرنسا في 07 ماي 1666م التي نصت على إطلاق الأسرى من الجانبين ومسالمة سفن الجانبين في البحار، وبعد إبرام المعاهدة حصل هدوء نسبي بين البلدين لتدخل قوات أخرى في الصراع.

كما قامت إنجلترا عام 1669م بشن هجوم على الجزائر والاعتداء على مراكبها في عرض البحر لكن المدفعية الجزائرية أجبرتها على العودة، وفي سنة 1671م هاجم الانجليز ميناء بجاية وأضرموا النار في اثني عشر مركب جزائري، كما هاجموا ميناء الجزائر وأضرموا النار في ثلاثة مراكب، ودخل حلبة الصراع ضد الجزائر إلى جانب الفرنسيين والإنجليز كل من الإسبان والهولنديين، وكاد الأمر يتحول إلى تحالف أوروبي ضد الجزائر، إلا أنها تفتنت وفوتت الفرصة فصالحت الهولنديين عام 1663م لمحاربة

¹⁸ -عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 2005، ج2، ص344.

الفرنسيين، وصالحت الفرنسيين لتحارب الانجليز والهولنديين، وفي عام 1671م صالحت الانجليز لتعود إلى الحرب مع فرنسا وهكذا.¹⁹

ب- على الصعيد الداخلي:

- الانفصال عن الخلافة العثمانية والاستقلال بالجزائر من الناحية الشكلية.
 - امتنع الرياس عن تقديم الدعم الاقتصادي للانكشاريين "الطبقة الحاكمة" وكانوا يسعون إلى إثارة الاضطرابات ضد الآغوات محاولة منهم لاستعادة السلطة التي سلبت منها.
 - عدم رضا الأهالي عن الطبقة الانكشارية.
 - فشل الآغوات في فرض نفوذهم على السلطة.
- كما شبت عدة ثورات ضدهم في جهات كثيرة مثل: العاصمة، وبلاد القبائل عام 1668م، نالت من هيبتهم وجعلتهم عاجزين على القبض بزمام الأمور، الأمر الذي شجع طائفة رياس البحر لاستعادة مكانتهم.

وبعد اغتيال علي أغا عام 1671م ألغي هذا النظام بقرار من ديوان الأوجاق والذي عوض بنظام الدايات، حيث يظل الداوي في الحكم طوال حياته دون أن يكون له الحق في تعيين من يخلفه.²⁰

ومن أهم خصائص هذا العهد نذكر:

- السلطة التنفيذية بيد أحد أعضاء الجيش الانكشاري، أما السلطة التشريعية فيتولاها الديوان.
- أصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم، وبالمقابل سيطرة الانكشارية على السلطة.

¹⁹ - صالح عباد: المرجع السابق، ص 129-132.

²⁰ - عبد الجليل رحومني: المرجع السابق، ص 72.

- قرر ديوان الانكشارية أن يتولى الآغا الحكم عن طريق الانتخاب، على أن يبقوا في الحكم لمدة شهرين اثنين فقط، وبالتالي أصبح الديوان هو الذي يقوم بانتخاب " الآغا " المنتدب للحكم، بعدما كان الحاكم يعين من قبل السلطان العثماني خلال مرحلتي " البيلربايات، والباشاوات. "

- اضمحل نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر، ونتج عن ذلك استياء الدولة العثمانية من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم.

وفي هذا الصدد أرسل الصدر الأعظم " كوبرلو محمد بن باشا " فرمانا إلى الجزائريين يخبرهم فيه " أخيرا لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون ... لدينا الآلاف من الممالك مثل الجزائر... "

- وضع الاغتيال كقاعدة أساسية لكي يحل آغا جديد محل آغا قديم رفض التخلي عن السلطة، وانتهت مدته، الأمر الذي جعل كل الآغاوات يقتلون عندما حاولوا عدم التخلي عن مناصبهم.

- استفحال الصراعات المحلية سواء بين ضباط الجيش البري أو ضباط الجيش البحري، وتدمير أبناء الشعب من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد.

- نجح "اليولداش" في قلب نظام الحكم والانفصال عن العثمانيين والحد من سلطة " الرياس " لكنهم فشلوا في انشاء نظام سياسي ديمقراطي ناجح.

- كان الانقلاب على الباشاوات عبارة عن انتقام من طائفة أو فئة الرياس التي كانت كلمتها مسموعة في عهد الباشاوات.²¹

ت-عهد الدايات (1671-1830م): يمثل هذا العهد المرحلة الأخيرة من مراحل التواجد العثماني بالجزائر، ويعتبر نظام الدايات انتصارا لطائفة الرياس، كما يدل ذلك على اختيار الدايات الأربع الأولين من بين طائفة الرياس، ومن سنة 1671م إلى 1689م كان الدايات ينتخبون من طرف الرياس، ثم استرجع الأوجاق نفوذهم، فأصبح الدايات يختار من بين ضباط الانكشارية، وذلك بسبب الحملات الأوروبية على السواحل الجزائرية خلال عهد الدايات والتي ألحقت أضرارا كبيرة بالأسطول الجزائري وأضعفت مركز الرياس.²²

²¹ - حنفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط01، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص134.

²² - عبد الجليل رحومني: المرجع السابق، ص73.

وتتميز فترة الدايات بالخصائص التالية:

- كان لفئة الرياس دورا بارزا في تأسيس حكم الدايات الذين عملوا على تقليص نفوذ الديوان، وأصبحت سلطته شكلية، وبدخول الجزائر عهد الدايات عرفت استقرارا سياسيا.

- تعتبر فترة الدايات من أهم الفترات التي مرت بها الجزائر، حيث دامت مدة 159 سنة وهي تعادل نصف تاريخ التواجد العثماني بالجزائر.

- يمكن أن نطلق على هذه المرحلة بمرحلة الاستقلال الحقيقي للجزائر عن الدولة العثمانية في تسيير شؤونها الداخلية والخارجية، حيث احتفظت الدولة العثمانية لنفسها بسلطات شكلية في الجزائر تمثلت بصفة خاصة في الدعاء للسلطان العثماني في صلاة الجمعة والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب، بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدة العسكرية للبحرية التركية في حالة تعرض الدولة العثمانية للاعتداء الخارجي (كما حصل في معركة نافارين سنة 1827م). وكذا في تقديم دايات الجزائر لهدايا أثناء المناسبات الدينية والسياسية، وبالتالي القاسم المشترك بين الدولتين دفع بالجزائر إلى الإعلان عن ولائها الروحي والتبعية الاسمية للدولة العثمانية وتحالفها معها كدولة.

محاولات الدولة العثمانية المتكررة التدخل في شؤون الدولة الجزائرية من أجل استرجاع سلطتها ونفوذها السابق أيام حكم البايلربايات والباشاوات وتأثير ذلك على مركز الدايات فحفزت القوى المعادية لهم على التمرد والعصيان، وأصبح الداوي ينتخب من طرف الديوان العالي (المجلس) الذي صار بمثابة برلمان في عصرنا الحالي، والسلطان العثماني لا يلعب أي دور في اختيار داوي الجزائري وينحصر دوره في إصدار مرسوم (أو فرمان) لتثبيت اختيار الديوان العالي بالجزائر، وفي حالة شغور المنصب فإن الديوان العالي هو الذي يختار خليفته بنفس الأسلوب السالف الذكر.²³

وبحلول عام 1710م دخلت إيالة الجزائر مرحلة هامة في نظامها السياسي فأنتجت عهد ثنائية الحكم، برفضهم الباشا المبعوث من طرف السلطان العثماني، وهي مرحلة الاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية، قاوم الدايات فيها حتى وساطة الباب العالي في المشاكل الداخلية والخارجية للجزائر، ولم يعد

²³ - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تح: محمد العربي الزبير، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 67.

بذلك للسلطان العثماني أي نفوذ فيهما إذ يعين الداوي في منصبه مدى الحياة، حيث هو المسؤول العسكري والسياسي للبلاد، والقاضي الأعلى في أمور الحرب والسلام والمسؤول على الضرائب وعلى التوظيف.²⁴

إذا أصبحت الدولة الجزائرية في عهد الدايات تتمتع بحرية العمل في المجال السياسي وبنيت جيشا قويا وعندها ميزانية مستقلة لا تقل أهمية عن ميزانية الدول القوية في تلك الفترة، كما كان الداوي يعقد المعاهدات (سلم وتجارة) باسم الجزائر ويبحث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل في الجزائر بدون مشاورة الدولة العثمانية، ويعلن الحرب، ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر، وهذه العوامل كلها تبين استقلالية القرار الجزائري.

أما فيما يخص أهم الأحداث التي عرفت فترة الدايات فنوجزها في النقاط التالية:

ومن الأحداث المميزة لهذا العهد كثرة الغارات الأوربية على سواحل البلاد برغبة الانتقام من قوة الجزائر البحرية خاصة من طرف الإسبان، الإنجليز، والفرنسيين، حيث نظم الأميرال الفرنسي "دوكين" في عهد الداوي بابا حسن وبالضبط يوم 12 جويلية 1682م حملة عسكرية قوامها ثلاثون سفينة حربية لمهاجمة شرشال ومدينة الجزائر، لكن هذه المحاولة باءت كغيرها من الفشل، وفي 25 أبريل 1684م أبرمت الجزائر معاهدة سلم مع فرنسا لمدة مائة سنة، لكنها نقضت عام 1776م بسبب نشوب معركة بين السفن الفرنسية والجزائرية، ومرة أخرى تم الصلح بين الطرفين.²⁵

وفي عهد محمد عثمان باشا خاضت الجزائر حربا ضد الدنمارك وبالتحديد عام 1770م، حيث قبلت الميناء الجزائري، لكن الجيش البحري الجزائري كان أقوى منها بكثير فتغلب عليها وأجبرها على التفاوض، وفي عام 1770م شنت القوات الإسبانية حملة عسكرية ضد الجزائر بأمر من الملك شارل الثالث وبقيادة (Don Pedro)، ولم تكد تنزل القوات الإسبانية على أرض الجزائر حتى تصدت لها قوات صالح باي قسنطينة وألحقت بهم شر الهزيمة، من بعدها حاول الملك شارل الثالث مصالحة الجزائريين لكن الداوي "محمد عثمان" باشا رفض لعدم ثقته في الإسبان، فكرر هجومهم عام 1784م على

²⁴ - عمار بوحوش: المرجع السابق، ص60. ينظر أيضا صالح عباد: المرجع السابق، ص154.

²⁵ - صالح عباد: المرجع السابق، ص143.

الجزائر بقيادة (Don Antonio) لكن كالعادة القوات البحرية الجزائرية أجبرتهم على الانسحاب، وبعد ذلك قبلت الجزائر الصلح مع الإسبان على شرط جلاء الحامية الإسبانية من وهران والمرسى الكبير، فقبل الإسبان هذا الشرط، لكن لم ينفذ فعليا إلا في عهد الداوي حسن باشا أي في سنة 1792م. كما تمكن حكام الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة من القضاء نهائيا على الوجود الإسباني في الجزائر وبالتحديد في وهران والمرسى الكبير، وكان ذلك في سنة 1792م، يذكر أن تحرير مدينة وهران من الإسبان تم على مرحلتين: حيث كان التحرير الأول عنوة عام 1708م على يد الباي مصطفى بوالشلاغم وصهره أوزن حسن، وفي عهد الداوي "محمد بكداش باشا"، وذلك بعد أن مكث فيها الإسبان مائتين وخمسة أعوام، ويسمى هذا الحدث بفتح وهران الأول، لكن الإسبان عادوا سنة 1732م واحتلوها مرة ثانية، إلى أن جاء عهد "حسن باشا" الذي شهد على يديه التحرير النهائي لمدينة وهران وكان ذلك سنة 1792م.²⁶

ت 01- موقف الدولة العثمانية من إلغاء منصب الباشا في الجزائر وأبرز الدايات:

نجح علي شاوش في إقناع السلطان أحمد الثالث بمساوئ ازدواجية السلطة، إن قوة الحجة لدى علي شاوش مع الهدايا الفاخرة أقنعت السلطان بوجهة نظره ومنذئذ أقر السلطان الأمر الواقع وأضحى حكام الجزائر يجمعون بين منصب أمير الأمراء والداوي وغدا يستعمل في الفرمان الوارد من اسطنبول: "إلى أمير أمراء الجزائر ودايها..."²⁷، إن الجمع بين السلطتين واللقبين أكسب الدايات نفوذا فضعف نفوذ ديوان الجزائر، فالداوي "علي شاوش" فرض كلمته على مؤسسة الديوان حيث سار الديوان على ما أوصى به فلما أصابه المرض أوصى بأن يخلفه أحد وزرائه وهو الداوي محمد (1718-1724م) هو محمد بن حسن أفندي خزناجي الداوي السابق، تم اختياره داي ليلة وفاة الداوي علي، تولى الحكم في إحدى أحلك الفترات التي مرّت بها الإيالة، ويعد هذا القرار بمثابة خطوة حاسمة في سبل وضع

²⁶ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 525-527.

²⁷ - عزيز سامح الت: المرجع السابق، ص 463.

دعائم نظام سياسي بمنأى عن هيمنة الجند، أصبح تعيين الدايات يتم ضمن الوزراء، وسار الداوي محمد علي النهج الذي رسمه سلفه حيث عارض كل محاولات الباب العالي في التدخل في شؤون الجزائر.²⁸

وفي أعقاب وفاته أسندت السلطة للداوي كرد عبدي (1724-1732م) الذي شغل منصب آغا العرب وباي بايليك التيطري، وقد عمل هو أيضا على التمسك بمبدأ الاستقلال عن الباب العالي فرفض وساطتها من أجل إبرام الصلح مع اسبانيا عام 1725م.

- **الداوي إبراهيم أفندي (1732-1745م)** هو إبراهيم بن رمضان، خزناجي الداوي السابق، وصهره²⁹، تولى مهامه كداوي لفترة تعد الأطول منذ نشوء هذا المنصب إلى تاريخ تعيينه، جمع الديوان وأعلن أنّ صحته وسنّة لم يعودا يسمحان له بممارسة عمله، كما رجاهم أن يقبلوا ابن أخيه الخزناجي حاكما مكانه، وبالفعل تم له ما أراد، توفي بعد تسعة وعشرين يوما من تخليه عن الحكم (17 نوفمبر 1745م) ، ودفن بالقرب من عبدي باشا في المقبرة القريبة من القصر، أي أنّه حكم ثلاث عشرة سنة ونصف السنة.

إرتقى بعده **الداوي إبراهيم خوجة (1745-1748م)** معروف في الكتب بإبراهيم كوجوك أو كوتشوك³⁰، اقترح تعيينه عمه الداوي السابق بدلا عنه، عن عمر يناهز خمسا وأربعين سنة، لم يكن خزناجيا فقط بل أيضا قائدا للجيش التي كان يرسلها عمه إلى مختلف مناطق المجاهات دام حكمه ثلاث سنوات، أحرز هو الآخر على لقب الباشا.

تولى الحكم بعده **الداوي محمد بن بكر (1748-1754م)** ولكن رغم ما اشتهر به هذا الداوي من العدل وفرضه للنظام، فإنّه قُتل في صباح 11 ديسمبر من سنة 1754م، أثناء توزيع مرتبات الجند.

28- عائشة غطاس: الدولة الجزائرية الحديثة، المرجع السابق، ص58.

29- حسب عزيز سامح التر، هو والد زوجة الداوي السابق. ينظر: عزيز سامح التر: المرجع السابق، ص484.

30- أي الصغير، وهذا لتمييزه عن عمه الداوي السابق، الذي يحمل الاسم نفسه، والرسم الصحيح لهذه الصفة في العثمانية، هو كوجك. وفي قائمة ولاية إيالة الجزائر التي أوردها عزيز سامح التر في كتابه، نجد هذا الداوي يحمل اسم رودس جوكلو إبراهيم. ينظر: عزيز سامح التر: المرجع السابق، ص663.

عين بعده **الداي علي نقسيس** (1754-1766م) قال عنه أحمد الشريف الزهار: "لما مرض علي باشا الملقب ببوصباع، نادى وزراء وجمعهم، وهم: الخزناجي وآغا العرب، وخوجة الخيل، ووكيل الحرج بباب الجهاد، ووكيل بيت مال المسلمين، وأوصاهم بولاية محمد باشا".

تولى بعده **الداي محمد بن عثمان خوجة** (1766-1791م) أصله من قرمان، قال عنه أحمد الشريف الزهار: "وكان -رحمه الله- مؤثراً للعدل والإنصاف؛ عارفاً بقوانين الملك ملتزماً لأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد، ووقعت في أيامه حروب كثيرة، ورزقه الله النصر في جميع حروبه،..."³¹. مات هذا الداي في سن متقدمة بعد حكم طويل وإثر مرض قصير.

نلاحظ أنه إبتداء من العقد الثاني من القرن الثامن عشر عرف نظام الدايات استقراراً واضحاً وهو ما نلمسه في طريقة انتخاب الداي كما نلمسه أيضاً في مدة الولاية إذ تعاقب على السلطة خلال مائة وعشرون عاماً 1710-1830م سبعة عشر داياً وبلغ وسطي معدل البقاء في السلطة ثماني سنوات وهو مؤشر على استقرار القرن الثامن عشر إلى أواخر التسعينات من القرن نفسه 1710-1791م.

تولى **الداي سيدي حسن** (1791-1798م) الحكم ودامت ولايته سبع سنوات يمكن تلخيص ما كتب حول شخصية هذا الداي، في العبارات التي أوردها أحمد الشريف الزهار بخصوصه، قال عنه: "كان عارفاً، عاقلاً وله فطنة في الأمور، غير أنه في بعض الأحيان كان يعتريه الحمق حتى يفعل أموراً لا تصادف محلاً"³²، من سيرة هذا الداي يجد أحداثاً هامة وقعت أثناء حكمه مثل إتمام تحرير وهران، وإقراض فرنسا مبالغ هامة أثناء أزمته دون فوائد، كانت وفاته طبيعية إلا أن فترة حكمه تميزت بعدم الاستقرار إذ عاد الجند إلى سابق عهدهم إلى العصيان والتمرد وأضحوا يعينون ويعزلون الحكام.

ويبدو جلياً إبتداء من عهد **الداي مصطفى** (1798-1805) الذي يعتبر من الدايات المشهورين في تاريخ الإيالة تعود شهرته لعدة أسباب منها الأحداث التي عرفتها الإيالة أثناء حكمه، محلياً وخارجياً، عمل بوظائف متواضعة جداً، قبل أن يترقى إلى رتبة خزناجي، عرفت الإيالة أثناء حكمه

³¹ - أحمد الشريف الزهار: مصدر سابق، ص 23.

³² - عزيز سامح الت: المرجع السابق، ص 61.

أشهر الثورات المحلية، كما تعرّض لعدة محاولات اغتيال نجا منها، ليقتل في الأخير على إثر الثورة التي قامت ضد اليهود، فرغم التنازلات التي قدّمها لأجل النجاة بنفسه، كاستباحة المدينة أمام المتمردين، انتهى بخنقه وجرّ جثته في شوارع المدينة ليُرْمى به أمام باب عزّون.

جاء بعده **الداي أحمد خوجة (1805-1808م)** هو من قاد التمرد ضد الداوي السابق، وكان هذا الأخير قد عزله من منصبه ككاتب من بين الكتاب الأربعة، أو الدفتر دار³³، أبدى حمدان بن عثمان خوجة استياءً كبيراً من هذا الداوي، حيث لم يتقبل قتله للداوي مصطفى، كما كتب: "لقد ارتكب هذا الرجل، أثناء ولايته، عددا من الجرائم..."³⁴.

تولى **الداي علي خوجة الغسّال (1808-1809م)** كانت مدة حكم هذا الداوي قصيرة أربعة أشهر، بدأت بقضائه على موظفي سلفه وانتهت بفوضى وفتنة، حيث أنّه وبعد عدم تمكّنه من دفع رواتب الجند سمح لهم بنهب المدينة، لكن قسم آخر من الجند بمعية السكان تصدّوا لهذه الفكرة، وانتهى الأمر بتغلّب القسم الثاني، وإجماعهم على قتل الداوي، فعرضوا عليه تسميم نفسه لكنه رفض لأسباب دينية فقاموا بخنقه.

بعد حكم **الداي علي خوجة شريف³⁵ (1809-1815م)** أو الحاج علي باشا أماسيالي، نسبة إلى مدينة أماسيا بالأناضول التي ولد بها، عمل قبل توليه كخوجة للخيل³⁶، وكان يلبس عمامة خضراء، للدلالة على أنّه من الأشراف، بعد مقتل الداوي السابق، انتهت فترة حكمه 1815م بطريقة مأساوية.

³³ - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 88، 89.

³⁴ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص. 150.

³⁵ - ذكر شارل أنّه كان يُلقب بالنمر، بسبب ما أشتهر عنه من القسوة. للاطلاع أكثر ينظر: شارل وليام: مذكرات وليام شارل قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تع: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 162.

³⁶ - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 105.

وتولي الداي الحاج محمد (1815م): رجل مسن، كان يعمل خزنًا، قال عنه حمدان خوجة:
"... واستبدل بخزنًا المسمى الحاج محمد باشا، ويعتبر هذا الأخير نموذجًا حقيقيًا للأتراك القدماء،
إذ كان رجالًا فاضلاً، وكان من الممكن أن يحكم مدة أطول لو لم يتعرّض لخيانة آغاه المسمى عمر"³⁷،
قتل هذا الداي على أكثر تقدير بعد سبعة عشر يومًا من حكمه.

عين الداي عمر آغا (1815-1817م) الذي ينحدر من أصل يوناني اعتنق الإسلام،
تولى الحكم في الثالثة والأربعين من العمر، وكان قد وصل إلى الجزائر قبل ذلك بعشر سنوات رفقته
أخيه³⁸، حيث جال في البلاد وعرف خباياها إلى أن عين آغا.

والداي حسين (1818-1830م) الذي شهدت البلاد في عهده استقرارًا سياسيًا دامت
ولايته اثنا عشرة سنة³⁹.

³⁷ - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص152.

³⁸ - تمتع أخوه هذا بالكفاءة مما جعله يتبوأ منصبًا رفيعًا في المقاطعة الشرقية، لكنه قتل بأمر من أحمد باشا، ينظر: وليام شالر، المصدر السابق، ص
162.

³⁹ - عائشة غطاس: الدولة الجزائرية الحديثة، المرجع السابق، ص60.